القديس أنطونيوس والإفخارستيا

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

القدّيس أنطونيوس البادواني، قدّيس العجائب وشفيع الفقراء في كلّ العالم، ترك لنا كتابات رائعة حول مواضيع لاهوتية كثيرة. وضع هذه الكتابات في أواخر سني حياته القصيرة زمناً، الكبيرة بالعطاء، تحت عنوان "العِظات"، عظات الآحاد والأعياد. يدلّ العنوان على مضمون هذه الكتابات، إذ إنّها تفسير لاهوتيّ وراعويّ لقراءات القدّاس في هذه المناسبات. اشتهر هذا القدّيس العظيم بعظاته وعمله الرسوليّ الذي ترك الأثر الكبير في نفوس المؤمنين على مدى الأجيال، وما أعجوبة لسانه المحفوظ سليماً حتى يومنا في البازيليك المشيّدة على اسمه في مدينة بادوفا الإيطالية سوى تعبير صادق من عند الله حول حقيقة هذا الأمر.

يعالج تعليم القدّيس أنطونيوس مختلف المواضيع في تنشئة المسيحيين، نختار منها في هذا المقال موضوع الإفخارستيا، أو على الأرجح الإيمان بالحضور الحقيقيّ للمسيح في هذا السرّ العظيم.

يتّبع القدّيس أنطونيوس أسلوب الآباء في تفسير الكتاب المقدّس، الذي كان يبحث عن المعاني الأربعة: الحرفي والرمزيّ والأدبيّ والأخيريّ. يبحث في الأول عن معنى الكلمات في سياق النص. أما الثاني فهو تفسير الإيمان على ضوء المسيح. والثالث هو المعنى الأخلاقيّ والتطبيقيّ. والرابع هو ما يخصّ الحياة الأبدية. بهذه الطريقة التفسيرية راح القدّيس أنطونيوس يبحث عن كنز المعاني في الكتاب المقدّس بأسره. هذا ما يكتب عنه في عظته ليوم الخميس المقدّس، حيث يفسّر القراءات من يوحنا ١٣ و ١٧، أشعيا ٢٥ ومتى ٢٦: ٢٦-٢٨، قائلاً أنّ المسيح صنع أربعة أعمال اليوم: غَسَلَ أرجل الرسل وأعطاهم جسده ودمه، وألقى عظة طويلة وعظيمة، وصلّى للآب من أجل كلّ الذين سوف يؤمنون به.

حضور المسيح في الإفخارستيا

على خطى القدّيس فرنسيس، كان القدّيس أنطونيوس يكنّ خالص الحبّ للمسيح الحاضر في سرّ الإفخارستيا، مما دفعه لنشر الإيمان بهذا السرّ في زمن كَثُرَ فيه الهراطقة الذين راحوا ينكرون الحضور الحقيقيّ للمسيح فيه، نذكر منهم "الكاتريون". في تلك الحقبة من القرون الوسطى شدّدت الكنيسة على الحضور الحقيقيّ للمسيح في هذا السرّ، وكان الرهبان الفرنسيسكان والدمنيكان العاملين بحقل الرسالة ينشرون الإيمان القويم ضدّ الهراطقة. من الجدير بالذكر أنّ تأسيس عيد جسد الرّبّ ودمه يرجع إلى تلك الحقبة. نحتفل بهذا العيد بعد عيد الثالوث الأقدس، ويقع غالباً بعد عيد القدّيس أنطونيوس.

الافخارستيا هي سر الايمان، تنمّي إيماننا بالمسيح الحاضر معنا الى الابد. لذلك سر الحضور الحقيقي للمسيح لا يذكّرنا فقط بالفصح كحدث من الماضي، بل يجعلنا نلتقي بالمسيح الحي القائم من بين الاموات.

يقول القديس انطونيوس:

«علينا ان نؤمن بقوة ونعترف علانية أن ذلك الجسد نفسه الذي وُلد من العذراء، وعُلّق على الصليب، ودُفن في القبر وقام من بين الاموات وصعد الى السماء وجلس عن يمين الآب، هذا الجسد نفسه أُعْطِيَ غذاءً للرسل في العشاء الاخير، هو الذي تكرّسه الكنيسة كلّ يوم خلال القدّاس وتعطيه للمؤمنين. عندما يقول الكاهن هذه الكلمات: «هذا هو جسدي»، يتحوّل الخبز الى جسد المسيح.

عشاء الرب، ذبيحة الصليب، الإفخارستيا

يؤكّد القدّيس أنطونيوس أنّ ذبيحة القدّاس هي نفسها ذبيحة الصليب، ذلك أنّ يسوع قال خلال عشائه الأخير: «هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يُهرق عنكم وعن الكثيرين لمغفرة الخطايا».... هو دمه حقا الذي سوف يُهرَق في اليوم التالي على الجلجلة بأيدي الخطأة، كان قد قدّمه بيديه المقدستين لعروسه المحبوبة، اي الكنيسة. عشاء الرب، ذبيحة الصليب، القدّاس، الماضي والحاضر والمستقبل، أحداث وأزمنة تتحّد كلّها بحبّ المسيح للكنيسة. الإفخارستيا هي علاقة الحبّ بين العريس والعروس، بين المسيح والكنيسة، هذه هي الصورة في تعليم أنطونيوس، يعبّر عنها بكلمات تقارب الشعر:

تدخل الكنيسة، أو النفس، في ملء آلام العريس. فتلتقط بتقوى وتجمع وتربط برباط الحبّ الشتائم حيناً، واللّطم حيناً آخر، من هنا البصاق ومن هناك السخرية والجلد، الصليب والمسامير والحربة، باقةً من الآلام والمرارة، تضعها على صدرها حيث القلب، حيث الحبّ» (عظات ١٩٣). تصبح بذلك الإفخارستيا علاقة صداقة ومحبة مع المسيح المتألّم من أجلنا.

الاشتراك بالقدّاس والمناولة

يشدّد القدّيس أنطونيوس على أهمية الإشتراك اليوميّ بالقدّاس والمناولة لخلاص النفوس، رغم أنّ المناولة اليومية لم تكن متّبعة كثيراً في ذلك العصر. ولكن ما كان يدعو إليه غالباً هو الاستعداد اللائق للمناولة: الإيمان بالحضور الحقيقيّ للمسيح في سرّ القربان وحال النعمة، فيقول في معرض تفسيره للباس العرس (متى ٢٢: ١١): «كيف يمكن أن يشترك بوليمة عرس ابن الله والطوباوية البتول من لا يرتدي ثوب الحبّ والتوبة؟». من كان عليه خطيئة مميتة، عليه التوبة والاعتراف، فالتوبة هي «باب السماء» يقول القدّيس أنطونيوس، والمحبة رباط الوحدة مع الله.

عندما نتناول جسد المسيح بإيمان حّي ومحبّة فهو يعطينا نعمتين: التغلّب على التجارب ونموّ

التقوى، ويصيّر المرارة حلاوة ويغذي التقوى. لذلك يصوّر سفر تثنية الاشتراع بالأرض التي تدرّ لبناً وعسلا. هذا هو الخبز الذي أعطاه يسوع لرسله فانتصروا على كل الآلام التي قاسوها. من يريد ان يكون أهلاً لتناول جسد المسيح، عليه ان يشدّ حقويه بحزام العفة، ويقويّ عواطفه على مثال القديسين ويعمل بحسب أقوالهم... مثل ابناء اسرائيل الذين أكلوا الحمل الفصحي مع الاعشاب المرة، كذلك يجب علينا أن نتناول الحمل الذبيح على الصليب من أجلنا، ذبيحة مصالحة مع الله من اجل خطايا البشر، مع مرارة الندامة.

الإفخارستيا والوليمة السماوي

ينهي القدّيس أنطونيوس عظته ليوم خميس الأسرار بالتفسير الأخيريّ، على غرار كلّ عظاته. ينطلق من نبؤة أشعيا عن الوليمة الإلهية في آخر الأزمنة (أشعيا ٢٥) ومن كلام يسوع في عشائه الأخير حسب الإنجيليّ لوقا: «وأنا أوصي لكم بالملكوت كما أوصى لي أبي به، فتأكلون وتشربون على مائدتي في ملكوتي» (لوقا ٢٢: ٢٩ – ٣٠). فيقول أنّ الاشتراك بسرّ الإفخارستيا يؤهّلنا للإشتراك بالوليمة السماوية، مجد الحياة الأبدية، حيث يفرح القدّيسون بالرؤية التامّة للثالوث الأقدس وبنقاوة الضمير. جسد الرب هو عربون الحياة الابدي.

هل تصلّون؟

هناك في البرازيل، هنود حمر هم السكّان الأصليّون للبلاد. التقى بهم أحد المُرسَلين، وخطر له أنْ يسألهم:

– هل تُصَلّون إلى ربّ السّماء؟

– أجابوه: كيف نعيش ولا نصلّي؟

– وماذا تطلبون في صلاتكم؟

– أجابوه بكلّ براءة الفقراء:

ولماذا تسألنا: ماذا تطلبون؟ الله أعطانا كلّ شيء ولسنا بحاجة إلى شيء. ولكن علينا أن نشكره كثيراً. هذه هي صلاتنا.